فصلية اللسان المبين(بحوث في الأدب العربي)
(علمية محكّمة)
السنة الثامنة، المسلسل الجديد، العدد السابع والعشرون ربيع١٣٩٦ ، ص ٨٩-٦٩

أضواءٌ تحليليّة على ملامح المديح النبويّ الشريف لَدى أبي‌الهدى الصيّادي

(دراسة في إطار الخصائص الفنيّة والمضمونيّة في شعره)*

مالك عبدي، أستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة إيلام

الملخـّص

يمتاز العصرالمملوكي والعثماني من بين الأطوار المختلفة الأدبية الحديثة والقديمة_خلافاً لانحدار التيارات الأدبية العامّة فيه_ بازدهار المدائح النبوية، ويشهد بأنها قد بلغت قمّتها على يد كثير من أعيان الشعراء من أمثال البوصيري، ابن‌نباتة المصري، صفيّ الدين الحِليّ... وغيرهم، وقد أصبح هذا فناً مستقلاً على يدهم. أبوالهدى الصيادي أحد هؤلاء الشعراء البارزين الذين عاشوا في هذه الفترة والذي تحتلّ المدائح النبوية عنده مكاناً مرموقاً و َيحظى ديوانُه في كافة أنحائه بأنه يحوي كَميّة هائلة من هذه المدائح الجليلة، وتــَزدانُ صفحات ديوانه بذكرمناقب الرسول(ص) وشرح مكارم اخلاقه. تعتمد هذه المقالة على خطة وصفية_ تحليلية في توفير موادّ الدراسة وسَرد الشواهد الشعرية لاستعراض هذه المضامين في إنشادات الصيادي النبوية، وستأخذ بالدرس والتحليل مااتّسَم به شعرُ أبي الهدى من ذكر الشفاعة والتوسل، سَردالفضائل والمناقب، بيان فضل النبي (ص) على سائر الأنبياء، معجزات الرسول وكراماتهمدح الصحابة الأجلاء وآل الرسول(ع) وغيرها من المحاور التي اشتمل عليها شعر الصيادي في هذا المضمار، لنرى كيف إن هذه القصائد أصبحت مرآة تعكس لنا خصاله التي حَسُنت وسجاياه التي كَمُلت.

الكلمات الدليليه:الرسول الأعظم(ص)، المدائح النبوية، فترة الانحطاط، أبوالهدى الصيادي.

---

* -تاريخ الوصول: ١٣٩٥/٠٨/١٦ تاريخ القبول:١٣٩٦/٠٢/١٢

عنوان بريدالكاتب الإلكتروني: *malekabdi@yahoo.com*

١ـ المقدمة

١-١ عرضٌ عامّ

يتّسم المديح النبوي بسِماتٍ صادقة لدى الشاعر وأحاسيس مرهفة ووجدانٍ رقيق عنده، فهو حبّ للرسول(ص) طمعاً في شفاعته ووساطته يوم الحساب، ويعني هذا أن المديح النبوي يشيد بالنبي(ص) باعتباره سيّد الكونين و الفريقَين مِن عُربٍ ومِن عجَمٍ، فَتُعتبر المدائح النبوية كظاهرة دينية_أدبية أحد أبرز المصاديق التي يتجلى فيها الأدب الملتزم، والتي تضمّ إلى جانب تمهيدها لازدهار كثير من الفنون الأدبية، رسائلَ أخلاقية-اجتماعية قيّمة، ونماذج تربوية مقبولة لدى الدين والشريعة الإسلاميّة، كما أنها تخلق في واحات الأدب الرحبة مناظرَ ذاتَ بهجة من أساليب الفنّ والبيان (طهماسبي، ١٣٨٨ش: ٣٤). وقد كان الرسول(ص) منذ بداية الإسلام حتى عصرنا هذا محظيّاً بعناية خاصة من قِبل مجموعات مختلفة من طبقات المجتمع العالمي من أدباء ومؤرخين وساسةٍ ومحقّقين و...غيرهم. فمنذ أن شرع القرآن المجيد في الحديث عن مناقب الرسول (ص) وشرح صفاته العُلى في بعض آياته من مثل قوله تعالى ﴿ فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)؛ ونحو قوله ﴿وَما اَرْسَلْناكَ اِلارَحْمَةً لِلْعالَمينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)؛ وكذا قولُه ﴿وإنك لعلى خُلُق عظيم﴾ (القلم:٤)؛ وغيرها من الآي القرآنيّة المباركة، فقد حاول كبار أدباء العرب أنْ يبادروا إلى نظم هذه الصفات وتجسيدها في شعرهم، وقد أسفرت بوادرُ هذه الصفات الجـــمّة لدى النبي الأمين، و كذا تـــودُّد الأدباء العرب وتَوقهم إلى ساحة هذا النبي القدسية عن حضور هذه الشخصية العظيمة بصورة بارزة في ساحات الأدب نظماً و نثراً، ومن أجل هذا كانت الآداب العربية منذ نشأتها في العصرالجاهلي وإبّانَ صدر الإسلام إلى العصور التالية من عهد الأمويين و العباسيين و كذا أعصُرُ الانحطاط تزدانُ باسم هذا الرسول المختار وبيان ميزاته الأخلاقية وتصوير مقامه المحمود عند الله خَلقاً و خُلُقاً.»

ولذلك قد افتنّ الشعراء و الناثرون على مرّ الدهور في خلق صورٍ ممتازة لهذا المشهد المحمدي الجميل، و خلّفوا لنا آثاراً جليلة في رسم هذه الشخصيّة المتعالية، وأن المدائح النبوية قد بلغت ذروة ازدهارها في هذا العهد لِما سَبَق من وجود بواعث دينية وأسباب عقديّة عميقة لدى الشعراء تُحفـــّزهم على ذلك، وقد بلغ هذا الازدهار أعلى مراتب الجودة والإتقان لدى شعراء كبار من أمثال البوصيريّ وابن نباتة المصري وصفي الدين الحلِي وتحـــَوّلَ لديهم إلى فن مستقل أُفرِدَت له مكانة مرموقة في الأوساط الأدبية إذ ذاك.»ولم تقتصر المدائح النبوية في

هذا العصر على شخصية الرسول وتجسيد أبعادها فحسب، بل بادرَ ت إلى تصوير حالة البؤس والشقاء الاجتماعية وكان لها إسهامٌ في الحديث عن مرارات الثقافة والسياسة والاقتصاد وسوء أوضاعها التي كان يقاسيها الشعب، وبذلك لعِبَت دوراً ملحوظاً في صيانة الشعرعن الركود والانحدار الكامل، وأثـــّرت على ثقافة العصر وآدابه تأثيراً بالغاً» (سالم محمّد، ١٩٩٦م: ٥٤٢). فلا غَروَ إذن أن يكون هنالك كثير من الشعراء قدخاضوا غمارَ هذا البحر اللُّجّيّ فساقوا مدائحهم نحو الرسول الأكرم(ص) بِما لهم مِن تشعّباتٍ في الأفكار والأحاسيس والوجدانيّات تجاه شخص النبيّ ومدحه(ص)؛ ولكنَّ لكل شاعر أسلوبًا خاصّا يتميّز به وسِماتٍ تفكيريّة وعَقَديّةً َيتّسم بها في اتّساع آفاق فكره وبَلوَرَة ملامح حبّه، إذن ينبغي أن ننظر إلى مدح كلٍ من هؤلاء مِن مرايا فكرهم الخاصّة لنرى كيف استطاع كلُّ منهم أن ُيقَولِبَ هذه المضامين المدحيّة في قوالِب كلامه الشعري، وكيف عَكَسَت هذه الكلماتُ مخزونَه الفكريّ في هذا المجال. و أبو الهدى الصيادي أحد هؤلاء الذين لهم قصب السبق في هذا الميدان والذي اصطبغت كلماته بصبغة نبويّة رائعة والتي عاضَدَتهُ على إظهار نزعاته الخاصّة بهذا الشأن ومكّنَتهُ من خلق مؤثّرات بصريّة خاصّة عن مكارم أخلاقه؛ ولكنّ من الطبيعيّ أن لانكونَ بصدد أن نعرّف الصيادي كأحد الشعراء المادحين في هذه الحِقبة إذ إنّ هذا أمر واضحٌ لا ُيتحِفنا بمزيدٍ في هذا الحقل، ولكننا نسعى لمعرفة الزوايا الفكريّة والعقديّة التي استأثر بها شاعرنا هذا، ودراسة بعض الآراء الغامضة أو المشكِّكة التي أبداها تجاه بعض المسائل التي هي مِن ثوابت العقيدة والإيمان. ويبدو أن مَن يرفَعُ راية الحبّ والولاء للنبي و ُيطلق شعار مودّته، يجب أن يكون على انتباهٍ لأمر ذوى قرباه كذلك، إذ لا يسألنا ربّ العزة أجراً إلا المودّة في القربى، فيجب أن نكون على حَذرٍ من تناسى حقوقهم أو تَنَكُّرٍ لِما تَوَجّبَت لهم من وجوه التكرِمَة والتوقير وإحقاق الحقّ، وأن لا نتغاضى عن بلوَرة هذا الحق وإن كان مُرّاً، فكلّ مَن ُيزجي سَحابَ حُبّه نحوَ النبيّ يجب أن لا يكونَ متنكّراً لِحَقِّ مَن ُيؤذي النبيَّ ما ُيؤذيه وُيسخط النبيَ(ص) مَن أسخطَه! وهذه إحدى الجهات التي لاتتّجه عند أصحاب المِدحة السليمة كيفيّة انبعاثها لدى الصيّادى وهوأمرٌ سنتطرّق إليه في موضعه. كما أن طائفةً من المسائل الكلاميّة التي تكون دائماً مثارَ الجدل والتضارب بين أصحابها، هي التي اندرجت كذلك في ضمن لائحة المدائح التي ساقها نحو النبيّ(ص) مِن قبيل أزليّة روحه الشريفة وكونه سابقاً على الأنبياء والناس جميعاً في الخلق و مراتب النشأة و... غيرها من المسائل التي تسترعي الانتباه لتوجيه دراسة مستقلّة بشأنها عسى أن تَنحَلّ عُقَدٌ من هذه الغوامض التي تتخلّل مضمونَ شعره. فستدرس هذه المقاله على منهج وصفي _تحليلي المدائحَ النبوية في ديوان أبي الهدى

الصيادي، و كيفيّة انبعاث خُلقيّات الرسول وسلوكه في حـــلّة ألفاظه، وتحاول تسليط الضوء على زوايا قد تكون خافيةً على أبصار الناظرين في شعر شاعرنا هذا. ويستدعي هذا أن نكون بصدد البحث عن إجاباتٍ على التساؤلات التالية، لإماطة اللثام عن وجه شعره المدحي الذي بَلوَرَ فيها صفات نبيّنا الكريم.

١-٢ سُؤالا البحث

ما هي أهم المحاور التي تدور حولها إنشادات الصيادي النبويّة؟

كيف استطاع أبوالهدى أن يُقَولِبَ هذه المضامين المدحيّة في قالَبٍ أدبيٍّ رصين؟ و كيف تَجَسَّدَت هذه المضامين المطروحة على مرآة شعره فنّاً و تعبيراً؟

١-٣ دراسات مُسبَقة

لمَّاكان تاريخ الأدب العربي حافلاً بعديدمن النماذج الأدبية ولاسيّمافي مجال الشعرالذي يدورحول شخصية النبي الأكرم(ص) وإنجازاته_عليه الصلاة والسلام_ فقد تَمّت هناك دراسات عديدة بشأنه. فمن أهم البحوثات التي أنجِزت بهذا الشأن يمكن الإشارة إلى تحقيقٍ أعَـــدّه محمّد الخاقاني بعنوان «المديح النبوي وبواعثه في الشعرالمهجري»، وقدحاول فيه الكشف عن أهم البواعث التي دفعت شعراء المهجر نحو إنشاد المدائح النبوية والغوص وراء معانيها. و قد نُشِرَت هذه الدراسة في العدد ٩من مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها سنة ١٣٨٧ش.

وكذا مقالة بعنوان «بررسی تطبيقي مدايح نبوی دوره معاصر با دوره انحطاط»عن المؤلف عدنان الطهماسبي وقد نُشِرت في العدد ٢من الدورة الإولى لمجلّة «الأدب العربي» عام ١٣٨٨ش بجامعة طهران، و أقام فيها المؤلّف مقارنةً بين أهمّ ما توَصـــّل إليه المديح النبوي في كلٍّ من الفترتين.

و هناك مقالة تحمل عنوان «بررسی تطبيقی مدايح نبوی در شعر جمال الدين عبدالرزاق وشوقي» و قد طُبعت عام ١٣٨٨ش في مجلّة «دراسات اللغة والآداب الفارسيّة بجامعة آزاد الإسلاميّة فرع دهاقان»، بقلم الكاتبين ناصر محسنی نيا و آرزو بوريزدان بناه كرمانی وقد قـــدّما فيها طائفةً من الأمثلة والشواهد التي تبيّن لنا المفارقات والموافقات التي تحتوي عليهما مدائح الشاعرَين.

وقد أعدّت «زهراء داوود نجاد» رسالة جامعيّة لمرحلة الماجستير في جامعة آزاد الإسلامية بِكرج عام ١٣٩٣ش و سَمَّتها «الشعر الديني و مظاهر تشكله في العصر المملوكي»

بإشراف الدكتور فرهاد ديوسالار فاستخرجت منها مقالة تحت عنوان «المديح النبوي في الشعر المملوكي» و استعرَضَت فيها الموضوعَ على ضوء تبيين الملامح المدحيّة العامّة في هذا العصر، فَسَرَدَت أسماءَ بعض أعلام هذه الحِقبة وعَنَتها بالشرح والدرس التحليلي والتقابليّ.

وهنالك العديد من الكتب التي عُنِيت بالموضوع ذاته وأخذَته بالدرس التحليلي أوالمُقارَن، ومن أهمّها كتابُ ألــّفــه الدكتور زكي مبارك سنة ١٩٧٧ ُيسمّى ب»المدايح النبوية في الأدب العربي» وقدسعى فيه كلَّ سعيه أن ُيــلِمّ بالموضوع من منطلق الأطوار الأدبية المختلفة في الأدب العربي، ويكون هذا من إصدارات مكتبة الشرق الجديد بدمشق.

كما صنّفَ فاروق خورشيد كتاباً سمّاه »محمّد في الأدب العربي» وقدحصرفيه جهده على تجلّيات شخصية النبي محمّد (ص) من أبعاد مختلفة في الآداب العربية عامــّة. وكتاب »فنّ المديح النبوي» لِغازي شبيب بتحقيق ياسين الأيّوبي و قد استوفى فيه المناهج العامّة والخاصّة التي عالجت المديح بشكل مستفيض في الساحة المحمدية. وهذا الكتاب موجود في المكتبة التخصصية للآداب في الآستانة الرضوية المقدسة وقد تمّ إصداره عام ١٩٨٨ بواسطة المكتبة العصرية للطباعة والنشر. و هناك كتاب »صور من حياة الرسول (ص)» لأمين دوَيدار وقد طُبع بدار المعارف بمصر عام ١٩٥٨ وقد أجرى المؤلف فيه الحديثَ عن مؤشرات أخلاقية وسياسية وعرفانية للنبي الكريم ومثّل صفاته العلى من مناحيها المختلفة. و رغم كل هذه الإنتاجات الأدبيّة والإبداعات الفنيّة المتكاملة بشأن الدراسات المديحيّة للرسول الأعظم(ص) إلّا أنّ ساحة الأبحاث لاتزال بِمَسيس الحاجة إلى دراسات مستقلــة بشأن شاعر كأبي الهدى الصيادي، ولذلك رمينا إلى سدّ هذه الفجوة بإنجاز تحقيق حول هذا هذا الشاعرالذي لعلّه يكون خاملاً، إلّا أن شعره و لسان مدحه للرسول الأعظم (ص) يكاد يكون لِأَسمى آيات المدح و الإطراء الفنيّ حاملاً. كما أننا نبذل المجهود على أن نكشف عن بعض الوجوه الجماليّة في مدائحه في حقل الدراسات الفنيّة من منظور الدلالات الموسيقية و المقدرات النحوية والتعبيرية التي تزوّد بها الشاعر، مهما تَيسَّر لنا ذلك.

٢- المدائح النبوية

المدائح النبوية هي ظاهرة أدبيّة شأنها كشأن سائر الأغراض الأدبية التي لم تظهرعلى ساحات الأدب فجأة، بل »إن هناك أسباباً دينية وتاريخية وسياسية ونفسانية ساعدت على تأسيسها، حتى أكملت دورتها التكوينية التطورية على مرّ التاريخ» (انظروا: شيخ أمين، لا تا: صص ٢٨-٣١). وإن كانت النشأة الأولى للمدائح النبويّة تعودإلى أوائل الإسلام وحين بعث الله

محمّداً (ص) نبيّاً على الأمّة، إلّا أن معظم هذه المدائح قد تَمّ إنشادها بعد وفاة النبيّ (ص) وما يُنشَدُ من الأشعار بعد وفاة أحدٍ، من شأنه أن يُسمّى«رثاءً»، ولكنّ المقامَ فيما يخصّ شخصَ النبيّ الأكرم (ص) ومميّزاته الروحيّة جديرٌ بأن يكون مقامَ المدح أوالنعت، لأن الرسول(ص) قدعُرف بأنه أدرك الحياة الحقيقيّة ولا يُتصَوّر له وفاة كما يُتوَفّى الآخرون حتى يكون له رثاء! فمقام المدح لذاته الطيّبة أنسبُ والكلمات في نعت صفاته أوفى.

وفي هذا الضرب من الضروب الأدبية يمهّد الشاعر في أغلب الأحيان لمدحه بتوطئةٍ غزليّة ثم يأخذ في المدح وينتقل إلى ذكرصفاته المعنويّةمتحدّثاً فيه عن رغبته إلى لُقياه ويذكر معجزاته وأمجاد حربه ومكارم أخلاقه ومناقبه التي ملأت أركانَ كلّ شيء، ثم ينتقل إلى نفسه فيذكر خطاياه وما صدر عنه من ذنوب لاتُحصى ويستغفر ربّه ويستشفع بالنبيّ عند الله (دزفولى، ١٣٩٠ش: ١٠١). وإن كان النبيّ(ص) لا يُخالف المدح ولايستشنعه ولم يكُن يعدّه شيئاً مرفوضاً إلا أنه_عليه الصلاة و السلام _ كان يستقبح المدح المشوبَ بالكذب والافتراء و المعاني المزيّفة و قال: «أحثوا التراب على وجوه المادحين» (سالم محمد، ١٩٩٦م: ٤٩). هذا و أن النبيّ (ص) كان يعتبرالمدح في حدودِ ما يتوفّر في الأشخاص من صفات حقيقيّة و مميّزات واقعيّة أمراً مستحسَناً، »كما كان يشجّع جماعة من الناس بإنشاد الشعر حول الدين و المذهب و الثناء عليهما، وكان هذا باعثاً على إنتاج طائفة جليلة من الأشعار التي تجسّم معالم الدين وتنشر مبادئ المذهب والشريعة، فأقبل عليه الناس كثيراً» (انظروا: جودت الركابي، ١٩٨٣: ٢٨٣-٢٨٥). و مما يدلّ على أن المدح والإطراء وتزكية النفس لا يكون ذميماً دائماً، أنّ هناك آياتٍ كثيرة تستفيض في مدح الإله و بيان مجده و توصيف إلهيته. و أنّ للقرآن الكريم الباعَ الطولى في مدح الشخصيات الممتازة و بيان فضائلهم في غضون آياته، كأصحاب الكهف و الرقيم وعبادالرحمن والمؤمنين والشهداء والصالحين... والذين يتمتعون بخصالٍ محمودة تفوح بها آيُ الذكر الحكيم في مواطنَ عديدةٍ منها. والأئمّة المعصومون _عليهم صلوات الله_ كذلك كانوا مُهتَـــمِّين ببيان فضائل بعض الشخصيات والأمكنة في دُرَرِ كلامهم، إذ يقول أمير البيان عليّ (ع) في إحدى كلماته في نهج البلاغة واصفاً النبيّ والأنصار «هم والله ربَّوا الإسلامَ كما يُـــرَبَّى الفِـــلوُ من غنائمهم، بإيديهم السياطِ وألسنتهم السلاطِ» [نهج البلاغة: الكلمة الرّقم٤٣٧]؛ و «الفِلوُ» هو المُهرُ وهو ولد الفرس، و» السِّباطُ» السِّماحُ، أي بأيادٍ مبسوطة غيرشِحاحٍ، و «السِّلاطُ» هو الحديدُ الفصيح، و قد شبّه المولى (ع) تربيتهم للإسلام و حمايتهم له بتربية الفِـــلو، ووجهُ الشبه شدّة عنايتهم به وحسن مراعاته إلى حينِ كماله (البحراني، ٢٠٠٨، ج٥: ١٠٢٩). إلّا أن المدح قد يكون حميدًا وقد يكون ذميمًا، ومن مواضع المدح

التي استحسنها أئمّة الهدى هو المدح والتقريظ للوالدين وللإمام العادل، كما ورد في كلام مأثور عن نبيّ الرحمة إذ قال: «لا يصلُح المَلقُ إلّا للوالدين والإمام العادل» (نهج الفصاحة بترجمة بايندە، ١٣٨٢ش: صص٥٠٩ و٥٢٩). هذا وأن الإنسان سواءً أكان في صفة مدحٍ أو ذمٍّ فعليه أن يكون قاصدًا (معتدلًا) في مِدحته وأن ُيجانبَ الإفراطَ والمغالاة في المدح المتملّق. فيقول أميرالمؤمنين(ع) بهذا الشأن: «إذا مدحتَ فاختصِر، وإذا ذممتَ فاختصِر» (ريشهري، ١٣٧٥ش، ج٤: ٢٨٦١). إذن فالمديح النبوي الشريف هو غاية محمودة و غرضٌ نبيل يتطلّع إليه المادحون، بما تحوي تلك الشخصيّة المعظمة مِن مكارمَ لم تُحصِها كتبٌ و لا أقلام! فكان كلُّ هذا سببًا في أن يكون للسيرة النبوية الراشدة ومناقبِه، الظهورُ الأكبر في أقوال شعراء هذا العهد، فأنشدوا أشعارًا غرًّا وقصائدَ طوالًا في مدح النبيّ (ص) وأشاعوا كلماتهم فيه، وقد لاقت هذه الإنتاجات الأدبية إقبالًا واسعًا في الفترات التي تَلَته، ومن المعلوم أنّ من عادة الشعراء المبالغةَ، وتزكيةَ الممدوح فوق ما يستحقّه، لكنّ مدح النبي ليس فيه من مبالغة، بل تقصير وعجز؛ وإنّما فيه الصدق والعاطفة والتودّد الملكوتي.

وقد اقترن عنوان المدائح النبوية في هذاالعصر باسم عدد من كبارالشعراء من أمثال البوصيري، ابن نباتة وصفي الدين الحليّ الذين أسهموا إسهامًا كبيرًا في إكمال هذا الفن النبيل وتخصيب مضامينه وجعلوه فنًا مستقلًا. وتُعتبر بردة البوصيري من أجودِ ما قيل في هذا المقام، وهي البردة من أشدّ القصائد النبوية نفاذًا إلى القلب ومن ألطفها موقعًا من السمع، وكانت هي التي أثارت رغبة الشعراء الأخرين إلى قول الشعربهذا الشأن؛ ويكون هذا مطلعها:

أمن تذكر جيران بذى سلم　　مزجت دمعا جرى مـــن مقلة بدم

(البوصيرى، ٢٠٠٧م: ٢٢٧)

كما َيلتجئ الحلّي _شأنَ البوصيري_ إلى ساحة النبيّ القدسيّة ويشتكى إليه همَّه وثقلَ أوزاره مستشفعًا به قائلًا:

ياخاتم الرسل الكرام وفاتح الن..　　عم الجـــسام ومـــن له الإحسان

(الحلى، ٢٠٠٥م: ٥٣)

ومهما يكن من أمرٍ فإنّ الأشعار التي قيلت عن شخصية النبي محمّد (ص) وصفاته المتفرّدة طيلة التاريخ كانت موضعَ اهتمام الأدباء و حظَيت بعنايتهم، ولما كانت هذه النماذج الرائعة كثيرة جدًا فاكتفينا بهذا القدر لكى ننتقل إلى دراسة أهم المضامين الواردة في مدحيات شاعرنا »أبي الهدى الصيادي«.

٣- نبذة عن حياة الصيادي وآثاره

وُلد محمّد بن الحسن الوادي بن علي الخزامي الصيادي المعروف بـ «أبي الهدى الصيادي» في منطقة خان شيخ من أعمال حلَب بسوريا. تلقّى العلوم الابتدائية في حلب ثمّ انتقل إلى آستانة حيث اتصل ببلاط عبدالحميد العثماني. «وكان السلطان عبد الحميد يعمل في بداية أمره على أساس العدل والسياسة الإسلامية، وتمكّن بهذا السلوك من لَفت أنظار الناس وجلب رضاهم داخلَ القطر العثماني، كما تمكّن من إرساء قواعد حكمه وبسط نفوذ السلطنة العثمانية إلى خارج البلاد. وكان السلطان العثماني ُيولي في دائرة حكمه اهتمامًا واسعًا بالعنصر العربيّ، لأن أهم البلاد المقدّسة وهي بلاد مكة المكرّمة والمدينة المنوّرة والقدس الشريف تقع في المملكة العربيّة، وكان لذلك ُيكرم مثوى الشخصيات العربيّة الفذّة، واتّـــخذ شاعرَنا الصيّادي_الذي كان من أشراف حلب وأعيانها_ مستشارًا له. وقد تَمّ إقصاءُ الشاعر بعد خلع عبدالحميد عن السلطة إلى جزيرة الأمراء وهناك فارق الحياة» (أبومنـــّة، ١٩٨٩م: ٥٣-٥٦).

كان أبوالهدى من أهل الحَصافة في عصره وكان مُلِمـــًّا بأطراف من العلوم الإسلامية وهو يتضلّع من مبادئ التصوّف والأدب. «ولم يكن الصيادي متهاونًا في مجال التأليف والتصنيف إذ خلّف آثارًا جليلة منها: (ضوء الشمس فى قوله صلى الله عليه و آله وسلم بُنِي الاسلامُ على خمس)، (فرحة الاحباب فى اخبارالاربعة الاقطاب)، (الجوهر الشفاف فى طبقات السادة الاشراف) و (الفجرالمنير)» (الصيادى، ٢٠٠٠م: ٢).

٤- ملامح المديح النبوي الشريف في شعر أبي الهدى الصيادي

تتمحور ملامح المديح النبوي لدى أبي الهدى حول محاور هامّة، وتتأصّل لها جذورٌ في ثابتِ معتقداته، فيرسم على لوحات شعره نقوشاً مزخرفة من بَوادِر هذا المديح المصفّى في مناحيه المختلفة فضلاً ومنقبةً ومعجزاتٍ وكرامةً وتوسّلاً وشفاعةً و... ماإلى ذلك من مَكرُماتٍ اختُصّ به النبيّ المختار، فانتقى منها الصيادي أهمّ محاورها فأجراها في مجاري شعره وصبغها بألوان فنّه وتعبيره لِيضُمّ ديوانُه بين دفّتيه مجموعة متراكمة من إنجازات هذا المديح المُنقَّى. فنورِد هناك عدداً من أهمّ المناحي التي تجسّدَت فيها أماراتُ مدحه –عليه الصلاة والسلام- مستعيناً بأمثلة على ذلك، مستفيضاً في الشرح والتحليل حيثما استدعى البحثُ ذلك.

٤-١ التوسّل والشفاعة

يُعَدّ التوسل بأولياء الله المقرّبين والأئمّة المعصومين_عليهم السلام_الذين هم المثل الأعلى للإنسان الكامل من أهمّ المعتقدات التي ورد لها ذكرٌ في القرآن الكريم والأحاديث الشريفة. يقول القرآن الكريم مخاطِبًا النبيّ الأمين (ص) في إحدى آياته: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصيبٌ مِنْها وَمَنْ يَشْفَعْ شَفاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْها وَكانَ اللهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقيتًا﴾ [النساء: ٨٥]؛ والشفاعة الحسنة هي التي روعِي بهاحقُّ مسلمٍو دُفِع بهاعنه شرٌّ أوجُلِب إليه خيرٌ، وابتُغِي بها وجهُ الله ولم تُوخَذ عليها رَشوة (الزمخشري، ٢٠٠٨م، ج١: ٤١٦).

ومن أهم المحاور التي تبدو ملامحُها في مدائح الصيادي النبويّة هو الشفاعة والتوسّل بالرسول الأعظم(ص)، إذ يرى الصيادي نفسَه أمارةً بالسوء غارقة في بحرالمعاصي وقدصَـــدّه هواه عن سبيل الله فمال إلى الضلال وانغمس في الملاذِّ الدنيويّة، فُينيب إلى ربه لائمًا نفسه بالتقريع وهو يتوسّل بالنبي الكريم مُسوَدًّا وجهُه من قبيح فعله ولايرى أحدًا سواه تنفعُه شفاعتُه، فيرجو به خلاصه من عذاب النار ومستنقع الهلاك:

ذُنوبي أثقلَت ظَهـــرى وإنى ... لِفَرطِ الوِزرِ أفَنتنِـــــى الخُطوبُ
وأوقاتى مُشَتَّتَـــةٌ وصبـــرى ... وهـــــى بَدَت مِن الوِزر العُيوبُ
وأيّامى بِنَوحّ الهَـــمِّ تَمضـــى ... وتَقطَع لَيـــــــلَ مُدَّتِها الكُروبُ
هَرَبتُ لِبابِ خَيرالخلق طه ... بِبابِ مُـــحَمَّدٍ تُمحَـــــى الذُّنوبُ

(الصيادى، ٢٠٠٠م: ٥٥)

فنراه يتحسّرعلى مافاته من سِني عمره والذنوب التي أحاطت به وقد أثقلَت ظهره، والفكرُ لاُيماشيه والعقل لا يحاذيه، وسراج عمره قد انطفى وأصبحت أوقاته متناثرة بالتمادي في الغَيّ وقد تقطعت به الأسباب وانسدّت أمامه سبلُ الهدى... فسفينة نجاة النبي(ص) هي خير وسيلة يلجأ إليها في غياهب هذه السجون، فيتقرب به إلى ربه مبتغيًا خلاصَه من الغيّ والضلال طالبًا الصفحَ الجميل من لدن جلالة ربـــّه! وبحرُ الوافر بتفاعيله المتكرّرة وهجاءاته المتتالية ما بين طويلٍ وقصير يبدو أنه خيرُ نَغَمٍ لِتجسيد هذه المَناحة وبَلوَرة هذا العبء الإجرامي المستطيل الذي صَدَع كيان الشاعر واخترق آفاقَ نفسه، إذ إن »الوافر سُمّي وافراً لوفور أوتاده وحركاته» (إميل بديع يعقوب، ١٤١١ق: ١٥٧)؛ فالوافرُ َيتّسم بوفرة الحركات، »والحركات أقوى الأصوات وضوحاً في السمع» (كمال بشر، ٢٠٠٠م: ٢١٥)؛ كما ُيلاحَظ أن كثيراً من تفعيلات هذه المقطوعة (أي مُفَاعَلَتُن) قد تحوّلت بزحاف العصب إلى (مُفاعَلتُن) بتسكين الياء، وهو ُيشبهُ عندئذٍ تفعيلة بحر الهزج (أي مَفاعِيلُن)، والهزجُ سُمّي هزجاً »لأنّه

يُشبه هزجَ الصوت، أي تـــرَدُّدَه وصداه، وذلك لوجود سببين خفيفين يَعقُبان أوائلَ أجزائه التي هي أوتاد» (إميل بديع يعقوب، ١٤١١ق: ١٥٢)، فلا ريبَ في أنّ اختيار هاتين التفعيلتين المتلائمتين تماماً مع ما توحى به الأبياتُ مِن معانٍ، لم يكن عفواً من قِبل الشاعر، وكان عامداً فيه قاصداً إلى الموافقة بين الموسيقى والكلام لِيهزجَ بهذه التأوّهات و يُردّدَ صداها في أعماق القلوب، والديناميكيّة والحركيّة اللتان توجَدان في بحر الوافر تدعمان هذه الاستطالة والتمدّد الملحوظ في بحر الهزج. وكان كثيرمن الناس من معاصري الصيادي وأبناء عصره من الشعراء وملازميه وأصحاب البلاط يستشيطون عليه حقداً لِما كان له من مكانة علمية شامخة وموقع اجتماعي رفيع، وكان هذا مما يُثيرحفيظته، فضاق بهم ذرعًا واشتكى همّهم إلى ساحة الرسول(ص) متضجّرًا مِن أذاهم وقد سَـــئِمَ تكاليفَ الحياة فقال:

يا رسولَ الله غوثاه ياجـــداه　　أنت الغياث للأبنـــــاء
بفُهُومي و حكمتي وعلومي　　و ظهوري ورفعتي وارتقائي
يطلبُ عاجزُ الحسود سقوطي　　وانخفاضي وذلتي وعنائـــي
أنت حَدّي و نُصرتي ومُعيني　　وضَمِينـــي و كافِلِي وحِمَائي

(الصيادي، ٢٠٠٠م: ٢٤)

فنراه يُكابِد صعابَ الحياة وقد ضاقت به الأرض بما رحُبت لِما لَـــقِيه من متاعب الحُساد من ذوي المكائد الذين اضطغنوا عليه حقودًا كثيرة لسعة علمه ونضوج فهمه، فماله إلا أن يلوذ بكهف أحمد المختار الحصين فيتقي به شرّ الحَسَدة من أعدائه. وأسلوب الندبة المتكرّر في الشطر الأول من هذا المقطع، المتمثّل في كلمتَي(غوثاه/يا جدّاه) بِما له من إيقاعٍ مُتَـــأوّهٍ ممدود، خيرُ سبيلٍ انتهجه الشاعر للدلالة على عمق هذه الضّراعة والنداء التوجّعيّ المستغيث، إذ إنّ إطالة الصوت و تمديده مصحوباً بأنغامٍ ذاتِ استكانةٍ ووقار، يرافقه إطالةٌ في أوجاع القلب المتلهّـــب الذي تنبثق منه هذه الزفرات . لأن »الهاء صوت حنجري احتكاكي (رِخوٌ) مهموس» (كمال بشر، ٢٠٠٠م: ٣٠٥)، ويكثر استعمال أحرف الهمس في هذه الأبيات حيث تكرّرت ٢٨ مرّة، وهذا الإيقاع المتهامس المشوب بالرخاوة يُشعِر بنوع من التلطّف والضعف والفتور في قلب هذا العبد العاصى المُثقل بالأوزار! ولاسيّما وأن هذه الأصوات اقترنت ٣٦مرّة بأحرف المدّ (وهي الألف والواو والياء الممدودات) في مُعظَم كلمات الأبيات، والتوفيق بين هذه المُدود والأصوات الشديدة والرِّخوة جعل من الأبيات مشهداً لطيفاً يمثّل للمتلقّي أجمل مشاعر الاستنصار والتضرّع و الاستعانة المتذلّلة.

٢-٤ ذكرمناقب النبي (ص) وبيان فضائله في الديوان

لقدكان رسول الله أسوة حسنة للعالمين جميعًا، وكان_صلى الله عليه وآله وسلّم_على خُلُقٍ عظيم لم يكن عليه أحد من الخلق أجمعين لاقبله ولا بعده. يقول القرآن الكريم:﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كانَ يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْاخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. لايستطيع كل أحد من أدعياء الإيمان أن يكون مقتديًا بهدى النبي (ص)، ولكن المهتدي هو من آمن بالله واليوم الآخر وكان لله ذاكرًا، قائمًا أو قاعدًا أوعلى جنبه. تكون فضائل النبي (ص) في جميع المجالات من العدالة والجودو السخاء والخُلق الحسن و الإيثارو التضحية والاستقلال الفكري والسياسي والعفة وطهارة الذيل و... تكون هذه كلّها نخبة من مكارمه العلياوسجيته المُثلى، وهذا قد حَـــفّز الشعراء في الأطوار المختلفة التاريخية على بلورة هذه السجايا وتجسيدها في شعرهم.فتتحلّى شخصية الرسول الأكرم (ص) بِحُليً خلقية قيمة تؤهّـــله ليكون خليفةً لله حقًّا في أرضه، مواصفات فريدة ممتازة لا ينالها أحد، وقد اختصّ الله نبيّه بوحده مستكملًا لهذا الشرف العظيم، مستأهلًا لكل هذه المكرمات. ومن جملة هذه الميزات التي ميّزالله نبيّه بها الحِكَمُ البالغة التي جاءت من لدُن عزيزٍ حكيم لهداية الناس. كمايقول سبحانه بهذاالشأن: ﴿حكمةٌ بالغةٌ فماتُغنِ النُـــذُرُ﴾ [لقمر:٥]؛ فالشاعر يصوّر هذه الصفات العُلى و ُيقرّ بأنها منبع المكارم ومصدر جميع الكمالات التي رغّـــبت الناس في التوجه إلى هذا الكهف الحصين الذي يكون ملجأ الهاربين وغياث المضطرّ المستكين:

وخَصَّـــــه اللهُ بكل خَصلَة ... عظيمة بالسعي لن تُكتَسَبا
وحِكَـــمٍ أورَدَها بالغـــةً ... مألوفةً بنَصِّها ما أغربـــا
وزُهرُ أحكامٍ هي العدلُ الذي ... مَن راح منصورًا به لن ُيغلَبا

(الصيادى، ٢٠٠٠م: ٤٧)

ويرى جودَه كذلك أشدَّ من البحر الهائج تلاطماً ويرى الغيث خجلانَ أمامَ سَيبِه إذا ما أمطرَت سحائبُ رحمته، إذ إنه مَورد السحاب الثقال، ولولاه لا نزل القَطرُ، ولا طلع البدرُ ولا على غسَق الليلِ انبلجَ الفجرُ، فيقول في هذا:

وعَـــمَّ اقطارَ الورى احسانُه ... فـــدونَه البحرُ إذا ما اضطربا
يغرق راجيه بأصناف الندى ... و يخجل الغيث إذا ما انسكبا

(الصيادى، ٢٠٠٠م، ٤٧)

والشجاعة كذلك من أهم الميزات التي تتصف بها شخصية الرسول (ص) وقدأجرى الحديث عنهاالصيادي في طيّات ديوانه، ويرى أن هذه الشجاعة والعزم الباسل في وجوده هو الذي ساهم في قصم شوكة الجبّارين والإطاحة بالظالمين واجتثاث أصول الشجرة الملعونة في القرآن، وهذه العزيمة الصارمة هي التي مكّنَته من خلق ملاحم خالدة ومآثر مجيدة في ساحات الوغى في بدر وحنين وغيرهما من المواقع، فهدّم بها أركان الشرك والعمى ودمّرها تدميرًا:

وأقامَ ركنَ الـــدين بالعزم الذي ذَلّت له الآسادُ فى البيداء
سَلَّ الجيوشَ بيوم بدرٍ جاءَهُم دَهمُو و رَدّ وُرُودَهُم ببلاء

(الصيادي، ٢٠٠٠م: ٣٢)

٣-٤ فضل النبي (ص) على سائرالأنبياء(ع)

يرى أبوالهدى النبيَّ الأكرم (ص) أفضلَ أنبياء الله طُـــــرًّا و أشرفهم خَلقًا وخُلقًا ويعتقد اعتقاداً ُيشاكل اعتقادالشيعة مشاكلة وطيدة من هذه الناحية، إذ إنه يعتقد أن الله سبحانه قد خلقه من النور وقد خلق الأنبياء من الطين والماء وصلصال من حمأٍ مسنون، فيستقي الأنبياء(ع) فضائلهم من منهل فيضه وكرمه(ص)، وُيقِـــرّ بهذه الفكرة ويوردها في شعره، ثمّ ينتقل إلى سيّدنا آدم(ع) ويسوق فكرته هناك بأن توبة النبي آدم قد قُبِلَت لِما كان متوسّلًا بالنبي الأكرم وتلقّى من ربه كلماتٍ فتاب بها إليه توبة نصوحًا فكان مقبول التوبة البتة! وهذامعنى قوله تعالى عند الصيادي في سورة البقرة إذ يقول سبحانه عن طريق الوصول إلى توبة آدم (ع): ﴿فتلقّى آدم من ربّه كلماتٍ فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم﴾ [البقرة:٣٧]؛ وهو معنًى لطيف جدًّا، فيقول فيه:

أبرز الله مفردا نوره الفياض والمرسلـــــون طين و مـــاء
هـــوإخوانه النبيون لـــكن مِن سَناُه قَبِلَ الكيانَ استضاؤه
و عليهم له شريف و أيادٍ و لهم من فـــيوضه استجداء
أصلُهم آدمُ ولمّا دعـــا الله تعالى بـــه استُجيـــب الدعاءُ

(الصيادى، ٢٠٠٠م: ١٢)

ولكنّ فكرته هذه بحاجة إلى شيء من التوضيح والتبسيط، لأنها كانت ولاتزال تكون مَثارَ النقاش لدى بعض الأدباء والنقاد أنه كيف جاز لشاعرٍ مثل ابن نباتة أن يقول قبله: لولاه ما كان أرض و لا أفقٌ/ ولا زمانٌ ولا خلقٌ ولا جيلُ؛ (ابن نباته، ١٩٣٢م: ٢٢٣)، فيراه (ص) باعث الخلق و ذريعة الصُّنع؟ وكيف يتَسَنَّى للبوصيرى أن يحكم بأنه (ص) قد دان الأنبياء قبل

أن يُخلَق؟! فيبحثون عن مدى صحّة هذا المعتقد. إذ يعلّل الدكتورزكى مبارك هذا الرأى بقوله :»و هذا الغلو لا يُفهَم إلا إذا عرفنا أنه يرجع إلى أصل من أصول التصوّف وهو القول بـ»الحقيقة المحمديّة». والحقيقة المحمدية هي التي قامت عليه »قبّة الوجود»، وهي صلة الوصل بين الله والناس ..هو المهيمن على جميع الخلائق ...هو حادث الجسد، ولكنّه أزليّ الروح..(زكى مبارك، ١٩٣٦م :٢٦٨ و٢٦٩). وقول زكى مبارك هذا مأخوذ من تفسير لابن عربي في فتوحاته حيث يقول: »اعلم أن الله لما خلق الخلق جعلهم أصنافاً، وجعل في كل صنف خياراً، واختار من الخيار خواصَّ وهم المؤمنون، واختار من المؤمنين خواصّ وهم الأولياء، واختار من هؤلاء الخواصّ خلاصة وهم الأنبياء، واختار من الخلاصة نقاوة وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم، واختار من النقاوة شِرذمة قليلة هم صفاء النقاوة المروّقة، وهم الرسل أجمعهم، واصطفى واحداً من خلقه وهو منهم وليس منهم، هو المهيمن على جميع الخلائق، جعله الله عمداً أقام عليه قبّة الوجود... فعِلمُه قبل وجود طينة البشر، وهو محمّد(ص) لا يُكاثَر ولا يُقاوَم، هو السيّد، ومَن سواه سوقة»(ابن عربى، لا تا، ج٢: ٩٧). إلا أن تعقيبَ زكى مبارك على نصّ ابن عربي بقوله »هو أزليّ الروح» مناقض للعقيدة الإسلامية السليمة، وهو زائفٌ من مصطنَعات عقيدته ، وهو على حد قول الدكتور بكرى شيخ أمين » فيه شططٌ ومغالاة، لأن الحدوث أمر طبيعي لأنه بشر، أما أزليّة الروح فاختراع من مبارك لم نجده في نص ابن عربي، بل ليس من المعقول أن ينطق به عاقل، فهو كفرٌ صُراح» (بكرى شيخ امين، لا تا: ٢٦٣و٢٦٤). و تعبير الدكتور شيخ أمين هذا، مما تنصّ عليه العقيدة الشيعيّة كذلك، إذ يقول العلامة الطباطبائي في تبسيط هذه العقدة الكلاميّة:» فكل ما سوي الواجب من الموجودات محدثٌ، وليس لأيّ ممكنٍ أن يكونَ أزليّاً، فكيف يمكن أن يكون الموجود الممكن أزليّاً؟! فالإنسان رغم أنّه أشرف المخلوقات ليس أزليّاً كذلك، ولكنّه أبديٌّ..فالروح الإنسانية هي موجود مجرّد وميتافيزيقي، وقد خُلِقَت قبلَ الخَلقِ في النشأة الأخرى... وهبطت من عالم المجردات إلى عالم الطبيعة» ﴿انظر: العلامة الطبا طبايى، ١٣٧٨ش: ٢١)، فـ »الأزليّة» التي عناها مبارك هذه، تقتضي أن تكون الروح البشريّة غير مسبوقة بشيء في عالم الخلق وهذا بَيِّنُ الفساد. فهذا الفضل الذي يُقِرّهُ الصيادي لخير الأنام هو أسبقيته على الأنبياء العظام في المنقبة والشرف، و في معارج روحه القدسيّة التي تفوق بل تَسبق أرواح النبيين في الخلق والإنشاء، حيث ورد في بعض الأحاديث الشريفة عن قوله (ص) »أول ما خلق اللهُ نوري» (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج١: ٩٧)؛ وفي طائفة أخرى من الروايات »أول ما خلق الله روحي» (المجلسي، ١٤٠٣ق، ج ٥٤: ٣٠٩)، فهم لا يُدانونَه في فضل ولا يُساوونه في عُلاه، وتفضيلُ

الصيّادي النبيَّ على سائر الأنبياء من هذا الباب وهو غيرُ مشوبٍ بشيءٍ من الخلل الاعتقادي الذي سبق.

٤-٤ معجزة النبيّ الخالدة ومكرماتُه

القرآن الكريم هو معجزة خالدة أنزله الله بالحق إلى النبيّ ليكون للناس على مرّ التاريخ هاديًا ونصيرًا. يتمتع القرآن الكريم بوجوهٍ إعجازية بارعة في أنحاء مختلفة، منها إعجازه البياني والبلاغي الذي أقعَــد الذين سعَوا في آياته معاجزين عن الإتيان بسورة من مثله ولوكان بعضهم لبعض ظهيرًا. فالقرآن له نظمٌ رصين ولفظ نضيد وحُسن بديع، وقدحظِيت هذه السمة القرآنية الإعجازية باهتمام وافر من قبل الأدباء والدارسين والمحققين و الفصحاء من الناس، وقد نزل هذا الكنز الأعجازي البليغ في بحبوحة الجاهلية التي كان خطباؤها وشعراؤها مشتهرين جدًّا بالفصاحة والبلاغة وكانوا سحَرَة البيان وأرباب الكلام، فجاء القرآن وكسَد سوقُهم وكان هذاالكتاب آية كبرى على زيف ادعائهم وكان نورًامبينًا خَبَت في ضوئه نيرانُ الجاهلية. يقول في هذا:

بفضله انجَلَت الهموم و بُدِّلَت ... بعــد الهــمزة والعنا بــصفاء
وسما منارُ الحق فيه الى السماء ... بالحـــــق لابــالفكر و الآراء
و أبان منهــاج الأمان بهمّةٍ ... أعلى عــلاها مــدرك العقلاء

(الصيادي، ٢٠٠٠م: ٣١)

وقد كان للرسول الأعظم _فضلًا عن القرآن الحكيم_ معجزات كثيرة أخرى وكرامات شائعة كان بعضها معجزات اصطلاحية جاءت تأييدًا لنبوته عليه الصلاة والسلام، كما ظهرت طائفة أخرى منها ككرامات لوجوده الشريف. وقد أورد الصيادي قسمًا من هذه الكرائم والمعجزات خلال حديثه عن النبي (ص) وأشار إلى بعض منها نحو: معجزة انشقاق القمر التي جاءت تلبية لطلب طائفة من المشركين، ولكنهم بعد أن رأَوه كذّبوه وقالوا إن هذا إلا سحرٌ مبين! فرفضوه ولم يستجيبوا لدعوته؛ ولديه معجزة شهادة الحيوان والنبات كما ورد في التاريخ عن شهادة بعض الأشجار لرسالته عليه الصلاة والسلام؛ كما له معجزة تَــفَجُّر ينابيعَ من الماء الزلال من خلال أصابعه(ص) وارتواء عساكره من ذاك المعين العَذب؛ ولحضرته كذلك معجزة البركة في الطعام وإطعام أربعين مسكينًامن قريش بطعام قليل جدًا، حيث أزال جوع هؤلاء الأربعين بطعام يكفي لثلاثة! كما له _عليه السلام_ معجزة حديث الحصباء والرمال وتهليلها في كفّه المباركة وتسبيح الماء عنده، وقد جرت أحاديث هذه المعجزات الباهرة في كلام

الصيادي مفصّلاً، فقال:

وبَدَت معجزاته البُيضُ تُتلَى	وتباهت بنصِّها القُرّاءُ
حينما انشقَّ فىالعلاء القمرُ الطالع	ليلاً شُقَّت قلوبٌ هواءُ
وتَهادَى الركبانُ يسرا الى الله	مذ مَدَّ يسرَه الإسراء
نطق الجِذع باسمه سبَّح الماءُ	بكفَّيهِ هلَّلَ الحصباءُ
وله الضبى قدتكلم والاشجار	سارت ولانَتِ الصَّمَّاءُ
و رَوَّى جيشه بجَفنة ماءٍ	يَأبَهُ العيون ذاك الماء
أشبع القوم من قليل طعام	فانطوى فيه للجميع الشفاء

(الصيّادي، ٢٠٠٠م: ١٠)

ولا نَظنُّ أن الصيادي قد أوردَ كل هذه المعجزات في شعره وقامَ بِسَردِ عناوينها لُيشعِرَ المخاطب بوجود هذه المكرُمات فحسبُ، إذ إنها أمرٌ بَيِّنٌ لا تخفَى منه خافيةٌ على أحد، بل لُيحييَ معالمَ هذه المعجزات التي انمحَت عناوينها في ظلّ المعجزة القرآنية الخالدة فَتناساهُ الناس، ولعلّ بعضهم يظُنّ أن معجزاته_عليه الصلاة والسلام_ تنحصر في دائرة الإعجاز القرآني فحسب. وَيقصِدُ الصيادي كذلك أن ُيرِي مخاطبيه من الجَهَلة الذين كانوا بآيات الله َيجحَدون أنهم ما كانوا لِيؤمنوا بظهور معجزة واحدة كأسلافهم من أعراب الجاهلية، فَيسرِد لهم عناوين هذه المعجزات تَترَى، لئلاّ َيتحرّشوا بالساحة النبويّة ولا يَرتدّوا على أعقابهم مِن إنكار المعجزات وتحريف الكَلِم عَن مواضعه فيزيدهم بذلك إلمامًا.

٤-٥ مدحُ آل الرسول(ع) والصحابة الأجلّاء

أكثَرَ الشعراءُ على مدى الأزمان بما لهم من مذاهب ومعتقدات وديانات مختلفة من مدح أصحاب الرسول وآله الكرام عليهم أفضل الصلوات والسلام. والصيادي كذلك رغم أنه كان يميل إلى مذهب الشافعية وينزع منزعَهم إلا أن أشعاره زاخرةٌ بكلمات كثيرة تحمل مدح آل الرسول(ع)، وقدتَمّت هذه المدائح وفقَ فكرة الشاعر ونزعته المذهبية الخاصّة التي تنظرإلى المدح من منظورها. وقد أدّى به هذا إلى أن لا ُيفرِّقَ بين شخصيّات مدحه وأن لا ُيقيمَ حدودًا فاصلة بينهم نظرًا لتفاوت مراتبهم ومايكون لهم من مَدارِجَ متفاضلةٍ أثناء حديثه عنهم، وقد أسفر هذا عن الخَلط بين الشخصيات الممدوحة لديه وسوق الأحاديث المدحيّة إليهم على السوية، أيًّا كانوا ومهما كانت مراتبُ عزّهم؛ فاختفى لديه بعض الحقائق، أوكتمها هو بنفسه _والله أعلم_ مسكوتًا عنها، وهذا قد يؤدّي إلى الغموض والتباس الأمر على القارئ وعدم

تمكّنه من التمييز بين بعض المسائل. وإن كنّا لا نستطيع أن نتغاضى عن الأسباب السياسية والظروف الاجتماعية في عصرعبدالحميد، والتي من شأنها أن تكون مؤثرة في ظهور هذه النزعة لدى الشاعر، »إذ إن سياسة التقريب بين المذاهب الإسلامية كانت من أهم السياسات التي يمارسها السلطان في دائرة حكمه، ولَمّا كان الصيادي يتولّى منصِب استشارته فكان عليه أن لا يُظهِر شيئًا خلاف ذلك و أن يتبع خطوات الأمير ويبذل جهده في التأليف بين قلوب المسلمين وإزالة الفتن ومحو الاشتباكات الفكرية والعقديّة ويقول بهذا الشأن: »ملعونٌ مَن سَبَّبَ فتنةً أوشارك فيها» (أبومِنّة، ١٩٨٩م: ٧٩). فاستفاض الصيادى في الحديث عن مناقب آل الرسول وأجِلّاء الصحابة بنزعته الخاصة هذه، وقد عَكسَها في شعره بصورة مفصّلة، كما تحدّث عن الأوّل والثاني والثالث (الخلفاء الثلاثة) بفضل كبير واحترام واسع حسبَ مُعتقَدِه، وقد يُبرِز مودتَه فيهم وحبه القلبي الشديدلهم، من دون تمييز بينهم ولا مفاضلة! يقول في مدح الخلفاء:

حبّ طه خليله صاحب الغار — الموالى اذ شَحَّتِ الاسخياءُ
باذل الكل فى هـــوى سيد الكل — ويتلو سيد الغرام الســخاء
و بجاه الفاروق ثاني الوزيرين — الذي لــذ حبــه و الولاء
فاتح الأرض ناصرالشرع والدين — ومَن طَورُه التــقى والــوفاء
وبجاه الشهيد عثمان ذي النورين — من زان مشهــدَيهِ الــحَياءُ

(الصيادى، ٢٠٠٠م: ١٦)

و واضح في هذه الكلمات حبه المفرط لهؤلاء الثلاثة الذين غصبوا حق الخلافة والإمامة، وأزالواأئمة الهدى عن مراتبهم التي رتّبهم الله فيها ودفعوهم عن مقامهم فحرّفوا كلمات الله عن مواضعه من بعد ما عقلوه، ولكن الصيادي لايأبى أن يُظهر ميله الشديدإلى هؤلاء، فيتحدّث عنهم على وجه التَكرِمَة والإستعظام ويذكر صفاتهم، وعما كانوا عليه من جاهٍ ومقام عندالرسول (ص) حسب رأيه، وينشر فضائلهم التي يُقِــرّها لهم. كماكان لعليّ(ع) أميرالمؤمنين وسيّد الأوصياء الصالحين مكانة سامية في شعره. فيذكرالصيادي في مواطن عديدة فضل الإمام ويبيّن مدارجَ علمه وحلمه وتُقاه. قد تطرّق الشاعر إلى بيان شجاعة عليّ(ع) وتضحياته عليه السلام في وقعَتَي صفّين ونهروان، ثمّ يُشيرإلى واقعة الغدير، ولكنه يجحد أو يغضّ الطّرفَ بوضوح عن حق الإمامة والوصاية من بعد النبي لعليّ وأولاده ويتنكّر لموضوع الخلافة أصلًا أو يسكتُ عنها لأسبابٍ سَبَقَت، فيكتفي بقوله عن حبّ النبي(ص) له ويكرّر ادعاءه بأن النبي إنما نصّ على حبه و لَم َينُصّ شيئًا على خلافته في يوم الغدير، و لم يكن هنالك نصبٌ

ولاتعيينُ ولاتوليةُ خلافةٍ! والسؤال المؤصَّـــلُ المكرور طوال التاريخ يطرح نفسه ههنا مرّة أخرى: أنه كيف يمكن أن يستوقــِفَ النبيُّ(ص) حشدًا كثيراًمن الناس وُيماطِل جمًّاغفيرًامن طوائف المسلمين في أخريات ساعات حياته في تلك الرمضاء بالحجازو حُمارّة قيضها ليقول لهم فقط: إنماأنا أحبّ عليًا!؟ ولُيثبِتَ ودادُه له فحسبُ؟! أكان حب النبيّ لعليّ طيلة حياته شيئًا يجحده الناس، حتى يكون النبيّ بصددتجديدهذاالحب له وتحقيقه للناس؟! وذلك على رؤوس الأشهاد في تلك الظروف القاسية في موسم حجة الوداع؟! أليس هذا ممّا ُيثير الضحك؟! هذاهو السؤال الأساس الذي يجب على الصيادي وغيره من أتباع هذه النظرية أن ُيدلوا بآرائهم فيه، وأن يأتوا بجوابٍ مُقنِعٍ عليه لطلّاب الحقيقة. فنورد الآن كلماته بهذا الشأن في حديثه عن فضائل علي(ع) ومراتب الزهراء البتول(س) وسكوته عمّا جرى في يوم الغدير من تفويض حق الخلافة، واقتصاره على ثناء النبي عليه يومَـــذاك، فُينشد قائلًا:

هوزوج الزهـــراء البتول ولاشـــك ... على مـــن زوجه الزهراء
كم بحطم الصفـــوف فى يوم صفين ... استغاثت من ضربه الرقباء
ولدى النهروان أثنت على صمصامه ... مـــن طيـــورها الخمصاء
وبيوم الغديراثنى عليه المصـــطفى ... وفى الثناء هـــــناك دعاء

(الصيادي، ٢٠٠٠م: ٤١)

ويكون توقير مقام أهل بيت النبوّة والرسالة وإعظامهم من أبرزالمسائل في ديوان الصيادي. فبعدأن يعدّد الشاعر مناقب أهل البيت(ع) ويذكر على وجه التفصيل أماراتِ مجدهم وسُؤدَدهم، يشير إلى ظلائمهم واضطهادهم على مرّ التاريخ والمظالم التي مُورِسَت بحقهم وحقّ أولادهم على يدحكّام الجور، فُيدين بهذه القضيّة ويستنكر الفظائع التي تكبّدها آل الرسول(ع) والمتاعب التي لَقوها و ماتعرّضوا لها من مرارات السجن والتعذيب والأذى والإقصاء والقتل والتشريد التي قاسَوها طوال الدهر، ويتأسّف على هذا الماضي المُؤسِف والواقع المرير:

و بجاه السبطين شبليـــن عينى ... عصبـــة فـــوقها استديـــردعاء
سيدى ســـادة الائمة و الـــكل ... لعمـــــرى أئـــــمة نجـــباء
حسرتى هم طول المدى ولكم ... من حسرات ماتت بهـــا كرماء
آه وا لوعتى عليهم إذا مـــــا ... خـــــطرت لى البقيع أوكربلاء
ذواحتراق إذيذكرالنجف الأشرف ... قلبـــى المـــــضنى وسامـــراء
فرقـــتهم يـــدالتجلى وطـــوس ... دارهـــم والبـــــطاح والـــزوراء
شـــرفوا كل بقـــعة قدسوها ... ومـــــع الله صبحهم والمساء

(الصيادي، ٢٠٠٠م: ١٨)

فنراه يتلهّف على مصائب أهل البيت (ع) وينوح عليهم نواحًا ويرمز إلى ذوات الأئمّة جميعهم، بما في ذلك من بقعة مباركة تضمّ أجسادهم أوفتنة شاملة أوقعوهالهم أوفادحة من البلاء عرّضوهم لها، إلى جانب ذكره لفضائلهم وراية عزهم وشرفهم التي تسموعلى رايات أهل الشرف اهتزازًا. وفي هذا مَزجٌ بين أحاسيس الوالِه المتلهّف المَكروب و رفع رايات العِزّ للعباقرة الميامين الهجان الذين طابَت بطَيبة وجودهم العرصاتُ.

٥- النتيجه

تتلخّص النتائج التي أسفرَ عنها هذا البحث في العناوين التالية: ١.إن مدائحه_في مجملها_ تصطبغ بصبغة مدحية صادقة للنبي وأهل البيت (ع)، إلّا أن قِسمًا منها كانت مشوبة بشيء من شوائب الحبّ السقيم لمن جاروا على النبي المصطفى وأهل بيته (ع) فكان ملتزمًا للصمت في مواطنَ ضاع فيها حقٌّ لذوي قرباه فسكت عنه غيرَمكترث ٢.إنّه قادرٌ على المُلاءمة بين اللفظ و المعنى ، فنراه ُيلائم بين ملفوظه ومنشوده حيثُ تَرِقّ عنده الألفاظ وهي تُدَغدِغُ الأسماع وتَلطُف لدى المشاعر عندما يتحبّبُ إلى الذات المحمديّة اللطيفة ويَحنو إليه، فصوته في هذا المجال هو نَغَمٌ عُلوِيٌّ يشدو به القلوب المتيّمةالمستهامة. ٣.كما أنه يسترسل في إطلاق الكلمات فتكتسي الألفاظ عنده بحلّة قشيبة من الخضوع والتذلل والاستكانة في مقام الاستعطاف وطلب الشفاعة؛ ويعمِد إلى انتقاء أحكَم الألفاظ رصانة وأمتنها جزالة في موقف الدفاع عن الشريعة النبويّة الراقية محاولاً الإقرار بها وتوطيد جذورها في نفوس السامعين؛ و يتكلّم بلسان الفخر والتعاظم عندما يقوم بسرد الحديث عن فضائل النبي ومناقبه(ص)، فيرسُم أمام أعين مخاطبيه ملامحَ هذه التكرمة النبويّة الشامخة ٤. لعلّ النقصَ الذي يعترى كلامَه وهو الذي أخلّ بصدق عاطفته أو يجعلنا نشكّ في خلوص نيته في سرد الحقائق هو أنه ُيدرِج النبيَ و أئمةَ الهدى(ع) وأصحابهم الأجلّاء، وبعض طغاة الصحابة الذين ملؤوا صدور أهل البيت غيظاً في كفّتَين متكافئتَينِ من المدح و إبراز اللطف، وهذا مما تأباه النفوس السليمة التائقة إلى كشف الحقائق الأصيلة، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان تَوّاقاً في حينٍ واحد إلى ضائمٍ و مَضيمٍ! فُيظهِر وُدَّه لكلّ من هاتين الطائفتين اللتين بَغَت إحداهما على الأخرى؛ فكيف يمكن أن نُحِبّ الباغيَ و المـــبغيَّ عليه على حدٍّ سواء؟! ٤.ومجملُ ما يمكن أن ُيقال عنه أنه كان شاعرًا نبويًا راسخ الإيمان، نظر إلى ممدوحه من منظور الحب الإلهي السليم، من دون تزلّفٍ ولامداهنة ولامراءاة، وإن اعترضه عراقيلُ من حبّ الذين لايسوغ محبتُهم لشاعرٍ

كالصيادي.

المصادر والمراجع

الف: كتب

القرآن كريم

نهج البلاغة

- ابن‌عربي، محمد بن علي. (لا تا). **الفتوحات المكيّة**، تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى، القاهرة:الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- ابن‌نباتة المصري. (١٣٢٣ق). **الديوان**، مصر: مطبعة التمدن.
- بديع يعقوب، إميل. (١۴١١). **المعجم المفصّل في علم العروض والقافية وفنون الشعر**، بيروت: دارالكتب العلميّة، الطبعة الأولى.
- بشر، كمال. (٢٠٠٠). **علم الأصوات**، القاهرة: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
- البوصيري، محمد بن سعيد. (٢٠٠٧). **ديوان البوصيرى**، بيروت: دارالمعرفة.
- پاينده، أبوالقاسم. (١٣٨٢ش). **ترجمة نهج الفصاحة**، طهران: منشورات علمي.
- الحلي، صفى‌الدين. (٢٠٠٥). **ديوان صفى‌الدين الحلى**، بيروت: دار صادر.
- ركابي، جودت. (١٩٨٣). **الأدب العربي من الانحدار إلى الازدهار**، دمشق: دارالفكر.
- ري شهري، محمّد. (١٣٧٥ش). **ميزان الحكمة**، تحقيق دارالحديث، قم المقدّسة: الطبعة الأولى.
- سالم، محمد. (١٩٩۶). **المدايح النبويه حتى نهاية العصرالمملوكى**، بيروت: دار الفكرالمعاصر.
- شيخ أمين، بكري. (لا تا). **مطالعات في الشعر المملوكى والعثماني**، بيروت: دار العلم للملايين.
- الصيادى، أبوالهدى. (٢٠٠٠). **ضوء الشمس فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم بني الأسلام على خمس**، دمشق: دار الثمر.
- الطباطبايى، العلامة مجمّد حسين. (١٣٧٨ش). **انسان از آغاز تا انجام**، قم: منشورات بوستان كتاب.

- مبارك، زكی. (١٩٩٧). **المدايح النبوية**، دمشق: مكتبة الشرق الجديد، الطبعة الثانية.
- ------- (١٩٣٦). **التصوف الإسلامی**، مصر: مطبعة الرسالة.
- المجلسی، محمّد باقر. (١۴٠٣). **بحار الأنوار**، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- النبهانی، يوسف. (١٣٢٠). **المجموعه النبهانيه فی المدايح النبويه**، بيروت: دارالفكر.

ب: مقالات

- أبومنّة، بطرس. (١٩٨٩). «السلطان عبد الحميد العثمانی و أبوالهدی الصيادی»، *مجلة الإجتهاد*، الصادرة عن اتحاد الكتّاب العرب بدمشق، العدد٥.
- أختری، طاهره. (١٣٨٥). «سيمای پيامبر در شعرشوقی»، *مجله دانشكده ادبيات و علوم انسانی*، دانشگاه تهران، دوره٥٧، شماره١٧٧، صص٣٧-٥۶.
- دزفولی، محمد؛ صيادانی، علی. (١٣٩٠). «تطور محتوايی مدايح نبوی»، *مجله ادب عربی*، تهران، دوره ٣، شماره٢، پاييز و زمستان، صص ٩٩_١١٨.
- طهماسبی، عدنان؛ اسماعيل زاده، حسن. (١٣٨٨). «مقايسه‌ی مدايح نبوی دوره-ی معاصر با دوره‌ی انحطاط»، *مجله ادب عربی*، تهران، دوره١، شماره٢، پاييز و زمستان، صص٣١-٥١.

فصلنامهٔ لسان مبین(پژوهش ادب عربی)
(علمی -پژوهشی)
سال هشتم، دورهٔ جدید، شمارهٔ بیست و هفتم ، بهار ۱۳۹۶

نگرشی تحلیلی بر مدایح نبوی در اشعار أبوالهدی الصیادی

(با تکیه بر مؤلفه های فنی ومحتوایی شعر او) *

مالک عبدی، استادیار زبان وادبیات عربی، دانشگاه ایلام

چکیده

شخصیت بی‌نظیر و صفات والاو روحانی حضرت رسول(ص) همواره در طول تاریخ سبب روی آوری شاعران به مدایح نبوی گردیده است، و به این دلیل تاریخ ادبیات عرب سرشار از نمونه‌های ارزشمند پیرامون شخصیت عظیم الشان پیامبراسلام است. در میان دوره های مختلف تاریخ، مدایح نبوی در دوره انحطاط برخلاف افول شعرسرایی این دوره به اوج شکوفایی رسیده و با پیشگامی شاعرانی همچون بوصیری، ابن نباته وصفی‌الدین حلی به صورت یک فن مستقل درآمد. ابوالهدی الصیادی یکی از شاعران این دوره است که مدایح نبوی جایگاه ویژه‌ای در اشعار وی یافته و جای‌جای دیوانش مزین به نام رسول اکرم و ذکر فضایل و مناقب ایشان است. در این مقاله با روش توصیفی- تحلیلی به بررسی مدایح نبوی دراشعارصیادی پرداخته شده است، که شفاعت وتوسل، ذکر فضایل و مناقب، برتری پیامبر برانبیاء، معجزات و کرامات و مدح صحابه و خاندان رسول از محورهایی است که در اشعار شاعر نمود یافته است.

کلمات کلیدی: مدایح نبوی، رسول اکرم(ص)، دوره انحطاط، ابوالهدی الصیادی

---

* تاریخ دریافت:۱۳۹۵/۰۸/۱۶ تاریخ پذیرش نهائی: ۱۳۹۶/۰۲/۱۲

نشانی پست الکترونیکی نویسنده:*malekabdi@yahoo.com*